"في التسليم القرآني"

تعليق النصّ وتشكّلاته في القرآن الكريم
سورة يوسف مثالاً

Specification of the text and its forms in the Holy Qur'an
Surat Yousif as an example

أ.د. علي حداد حسين شبوط
Dr. Ali Haddad Hussein Shabout

العراق/ جامعة بغداد / مركز إحياء التراث العلمي العربي
Iraq /Center of revival of Arabic science Heritage
University of Baghdad

Alhaddad55@yahoo.com

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

ملخّصُ البحث:

يسعى هذا البحث إلى استثمار آلية قرائية استنبطها الباحث أُسست على نقل مفهوم (الالتفات) الذي تورده كتب البلاغة في ضمن المحسنات البديعية المعنوية، لتدرجه ضمن مصطلح آخر ندعو إليه، هو(تعليق النصّ)، لإنتاج آلية قرائية ندعو إلى تمثّلها في قراءة أكثر من نصٍّ شعري ونثري، وتقوم على استقصاء ما يحصل في النصّ من انتقالات أو تبدّلات على مستوى المعنى / الدلالة، أو على مستوى التشكيل الفني – لغةً وصورةً وإيقاعاً – تؤسس لتعليق مساحة من النصّ – بمستوياته كلاً أو بعضاً – لمصلحة معنى آخر في سياق الدلالة الأشمل التي تؤطر مختلف التعليقات النصّية، وهي الدلالة التي تتكاتف تلك التعليقات لتجسيدها. ويبرز هذا التعليق في عددٍ من الأنماط، سنشير إليها في مسار قراءتنا الفاحصة لإحدى سور القرآن الكريم، تلك هي (سورة يوسف) التي اخترناها مثالاً يكاشف التلقي بما يتمثّل آلية (تعليق النصّ) التي اعتمدناها أداة لتفحّص هذه القصة.

الكلمات المفتاحية:

التعليق النصّ، سورة يوسف، السرد البشري

Abstract :

This research seeks to invent a reading mechanism based on the concept of transferring that thrives in the rhetoric books of verbal rhetorical enhancers ,that is, it could be called “specification”. In having such a mechanism a poetic and prose text runs more readable and prone to explication. Here it could sense what a text cuddles : transitions or changes that take place in the text on the meaning , semantics, or on the artistic formation, language, image and rhythm. Such stipulates compass a space in a text on all or some levels in favor of another meaning in the context of the broader indication that forms various textual specification .It is of semantics that yoke all the specifications altogether to give identity to them. Such specification appears in a number of patterns, will be tackled later in Surat Yousif as an example that reveals the mechanism, specification, we adopted as a tool, to fathom the tale.

key words:

Text commentary, Surat Yusuf, human narration

المقدّمة:

لم يتوقف النصّ القرآني عن البث الفكري والجمالي والإتيان بجديده الذي يأخذ القراءة المتّجهة إليه ـ بمحصولها من التأمل والاستقراء والكدّ المعرفي ـ نحو مآلات خصبة من الكشف القيمي وتجليات البناء اللافتة، فهويأتي طبقاً لوصف الإمام علي عليه السلام ـ نصّ « لا تخلقه كثرة الرد وولوج السمع»[1].

ومن خلال هذا التيقن فقد شرع النصّ القرآني فضاءه الرحب للتلقي كي يمتاح منه قراءات متعدّدة، لاسيما حين تذهب إليه القراءة محمّلة بأدوات فحص جديدة، واستنطاق قرائي مغاير، تباعد فيه بين وجهتها والخلاف التفسيري أو التأويلي، جاعلة مناط اشتغالها منبتاً عند بنية التشكّل النصّي، وجماليات التركيب القرآني وفيوض بثه.

ومن تلك الرؤية، وتأسيساً على آلية الاشتغال المتبناة (تعليق النصّ)[2] التي تخيرناها مجسّاً لتفحص ما يكنّه النصّ ويتبناه من مثله والدلائل عليه ـ فقد يممنا نحو ذلك المتن المقدّس، آخذين أداتنا القرائية معنا، لاستجلاء ما يمكن له أن يكاشفنا به من محمولات المقصد القرائي الذي يكتنزه.

وكان اللافت أننا وجدنا ما نبتغيه من تمثّلات مسعانا القرائي الفاحص بين متون سور القرآن وآياته وبثراء استوعب مقاصدنا كلّها، إذ أمدنا هذا النصّ العظيم بكلّ أنماط (تعليق النصّ) وتشكّلاته، حتى بانت آلية اشتغالنا سمة تشكّل لا حدود لبثها في القرآن الكريم، وبـمثالية تعبيرية وجمالية لا تجارى، وليس ذلك بالكثير على فيض النصّ القرآني وخصبه ـ الذي عدّت الدراسات منه وماتزال تعدّ ولا تعدده ـ إذا ما استعدنا تذكّر أنَّ كثيراً من الآيات القرآنية كانت من بين الأمثلة الأولى التي احتكم إليها البلاغيون العرب القدامى لتكون محجتهم عن مفهوم (الالتفات) ـ الذي انطلقنا منه لتكييف مفهومنا (تعليق النصّ)[3].

لقد اخترنا ـ في مسعانا التطبيقي المنشود ـ أن نذهب إلى القصص القرآني حيث يتواصل البث السردي باللغوي بالقيمي، معلناً عن تكامل نصّي تعبيري وجمالي باذخ، متأملين ـ من بين ذلك القصص ـ ما توافرات عليه قصة النبي (يوسف) في السورة التي حملت الاسم نفسه من كشوفات نبتغيها لآلية (تعليق النصّ) التي اعتمدناها أداة لتفحص هذه القصة.

تمثّل القرآن الكريم الحاجة الإنسانية للقص، تلك الحاجة التي لا يختلف العرب عن سواهم فيها، فكان لهم ـ كما لغيرهم من الأمم ـ حصة وفيرة من المرويات الواقعية والخرافية والأسطورية التي تمثّلت تفصيلات حياتهم ومعتقداتهم وحروبهم وسير أبطالهم، وأيامهم تلك التي استوعبت إلى جانب متنها السردي كثيراً من أشعارهم وأمثالهم وحكمتهم[٤].

ولكن العرب ـ كما يبدو ـ كانوا يشعرون بتفوق أهل الديانات التوحيدية ـ ولاسيما اليهود ـ عليهم فيما لديهم من نوعٍ آخر من القصص المدوّن في كتبهم، وذاك هو قصص الأنبياء ـ التي ستوصف لاحقاً بـ (الإسرائيليات)[٥] ذلك القصص الديني الذي كان لدى اليهود، ولم يكن العرب على اطّلاع متسع عليه مثلهم[٦]، فكان لابدَّ أن يسدّ النصّ القرآني ـ وهو النصّ الكتابي المنزل بلغة أولئك العرب ـ هذه الحاجة الثقافية لديهم، في الوقت نفسه الذي يفنّد فيه بعض ما كان في مرويات اليهود ومزاعمهم عن الأنبياء، وتعديل وقائع السرد المتداولة لديهم ببديل منطقي يناسب قداسة المروي عنهم الذين تشير إليهم تلك المرويات، ليعيد إنتاج تلك القصص متجاوزاً كثيراً من التفصيلات ـ ولاسيما الحسية منها ـ ويقدّمها بما يناسب قيم الشخصية المسلمة التي عدّ إيمانها بنبوة أولئك الرسل والأنبياء السابقين واحدة من اشتراطات إسلامها القويم[٧].

ولأن النصّ القرآني يتّجه بخطابه إلى قومٍ هم أهل فصاحة وبيان وثراء في لغتهم فقد كان من الطبيعي أن يتأسس ذلك الخطاب على خصائص التعبير العربي البليغ وجمالياته في الإيجاز والإشارة والكناية والتأول الدلالي اللافت.

وهكذا جاء القرآن الكريم ـ وفي الجانب الذي تمثّله القصص الدينية خاصةً ـ ليضع بين يدي العرب المسلمين نصّاً مدوناً يعنيهم، ويعينهم ليحاججوا به أصحاب الديانات التوحيدية الأخرى، في الوقت ذاته الذي توافر فيه على الجانب القيمي الذي يريد النصّ إيصاله، بوصف القص« أداة أساسية من الأدوات التي اعتمد عليها نص القرآن في حركته وسيرورته وديمومته، وأفرز من ورائها فاعلية واقعية، وأنشأ حركية (الاعتبار) وثقافة (الاتعاظ) وسند (الإنصات) والوعي الجمالي الذي انساب من خلالها ـ حكياً وسرداً ـ إلى مجمل تشكيلات النصّ القرآني»[٨].

لقد رأى أحد الباحثين في مجمل قصص القرآن الكريم أنها تبنت ـ في مقاصدها ـ وظائف بدت متماثلةً، إذ إنَّ « الوظائف: (الدعوة) و(الموقف) و(الجزاء) مطّردة في كلّ القصص، قد تختلف في جزئيات أو تفاصيل أو شخصيات . غير أن ما يختلف من قصة إلى أخرى لا يؤثر في الوظائف الثلاث، فهي ثابتة في كلّ القصص»[٩]. وعندنا فإنَّ ذلك متصل بغايات القصص الدينية ومقاصدها التي كثيراً ما أوقفت التدفق السردي و(علقته) لمصلحة الإشارة إلى المحمول القيمي الذي تريد إيصاله من خلالها.

لانريد أن نستعيد هنا الحديث الذي تداولته دراسات كثيرة عن موقف الإسلام من الشعر[١٠] إلا بحدود ما تثيره لدينا الإشارات القرآنية للشعر بإزاء ما كان منها عن القص.

لقد وردت في القرآن الكريم سورة اسمها (الشعراء)[١١]وأخرى اسمها (القصص)[١٢]. ومن استقراء طبيعة المسميين يمكن للمتأمل أن يستنبط موقف

القرآن من هذين الفنين، الذي هو- بطبيعة الحال - موقف الدين الإسلامي الذي تضمنه النصّ القرآني منهما.

لقد ذهبت تسمية السورة الأولى إلى المنتجين للشعر، وهم الشعراء[١٣] أولئك الذين نأى الخالق في كتابه الكريم بنبيه ﷺ أن يكون منهم: (وماعلمناه الشعر وما ينبغي له)[١٤]، في حين اتّجهت الأخرى لتشير إلى المنتج (القصص)[١٥] وليس إلى من يتبنّى قصةً، وهي رؤية يمكن لها أن تمدّنا بتصورٍ أن المقصود في السورة الأولى الجانب الشخصي الذي يتجسّد فيما يمكن أن يكون عليه أولئك المنتجون للشعر ممن ارتبط إنتاجه بأسمائهم وخصوصياتهم السلوكية والقيمية الذين جعلهم النصّ القرآني فئتين متباينين: أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وسواهم« الذين في كلّ وادٍ يهيمون والذين يقولون مالا يفعلون»[١٦].

أمّا القصص فقد كانت الرؤية دالة على أن المعني بالأمر هي ذاتها، وليس رواتها الذين لا يمكن تشخيص سماتهم ووقائع حضورهم إلا بكونهم نقلة تلك القصص على نحو شفاهي - في الغالب - لمتلقين كثيرين، ليصبح الأمر متعلقاً بطبيعة القص ونوعه الذي يستبعد القرآن منه القصص والأخبار غير الواقعية كونها (أساطير الأولين)[١٧]، لتأتي سوره وهي تحمل أحسن القصص.

وتأسيساً على ماتقدّم يمكن القول إنَّ القرآن الكريم أفسح مجالاً للقص في الوقت نفسه الذي (علق) الشعر نهائياً من متنه، مقصياً إياه - في مراحل دعوته الأولى - من دائرة التمثل في التوجه القيمي الذي يريده[١٨] .

غير أن ماخصّصه للقص من مساحة لم تكن لتشمله كلّه، فقد (علق) منه هو أيضاً القص التخييلي والخرافي والأسطوري، وأبقى القص الواقعي الذي أورده

متمثلاً في قصص الأنبياء التي جرى توظيفها بوصفها قصصاً تصنع متنها القيمي (العقائدي) المنشود والموازي لمتنها التاريخي الموثق.

لقد وقفنا ـ في سياق تمثلنا لإجرائية (تعليق النصّ) ـ على كثير ممّا حفل القصص القرآني به ـ كما أيّ نص يتصف بالسردية ـ من أنماط التعليق وأمثلته التي استوعبت تشكّلاته تلك التي سنتبينها مدلين عليها في قصة النبي يوسف بوصفها مثالاً مستعادة قيمه وتشكّلاته في سواها من القصص القرآني.

وقع تخيّرنا على قصة يوسف ـ من بين القصص القرآني ـ للأسباب نفسها التي أدت ببعض الدارسين قبلنا إلى تخيّرها مثالاً لقراءاتهم[١٩]، فهي الأكثر حضوراً حين يذكر القصص القرآني، لما فيها من خصب ومقومات سرد متكاملة الأداء. وهي أطول قصة وردت كاملة في سورة واحدة وسميت باسم صاحبها، ولم تكرر الإشارة إلى تلك القصة ثانية في أيّ سورة أخرى من سور القرآن الكريم[٢٠].

لقد كانت القراءات الأخرى السابقة للسورة حاضرة عندنا، ولعلّها من دوافع ميلنا لقراءة هذه القصة بحثاً عن أفق استنطاق آخر غير ما كان لتلك القراءات، لاسيما ونحن نأتيها ومعنا أداة تأمل وفحص قرائي هي غير ماكان بين يدي الدارسين الآخرين من أدوات الاستقراء ومستلزماتها المتبناة عندهم.

وما نودّ الإشارة إليه هنا ـ وقبل الذهاب إلى متن السورة ـ أن قصة النبي يوسف ـ كما هي الحال مع غيرها من قصص الأنبياء الأخرى ـ قد جرى تداولها في السياقين الديني والتاريخي، وكان لها بينهما ما اختصّ به كلّ منهما عن الآخر من تفصيلات ووقائع، ففي السياق الأول يمكن الإشارة إلى ما بين المتن القرآني للقصة وما جاءت عليه في العهد القديم (التوراة)[٢١]، إذ سبقت في القرآن بأكثر من تقديم تعبيري وقيمي ـ

سنقف عندها لاحقاً ـ في حين جاء سردها في التوراة مباشراً وبلا مقدمات، حتى بدت وكأنها تروى هناك لذاتها بوصفها وقائع من تاريخ مستعاد لأنبياء بني إسرائيل [٢٢].

أمّا السياق الآخر التاريخي فنجد بعضه في متون المؤلفات التاريخية العربية وما روته عن وقائع التاريخ البشري في عصوره المختلفة، وما أوردته من إشارات إلى تفصيلات من حياة الأنبياء والرسل وأزمنتهم والشعوب التي نشروا بينها دعواتهم التوحيدية، وهي سرود يمتزج فيها أحياناً التاريخي بإضافات مما يخبر عنه التصور الإسلامي ويضيف إليه وقائع وصياغات أسماء أمسى بعضها من المتداول الشعبي[٢٣].

وردت سورة يوسف ـ بآياتها البالغة مئة وإحدى عشرة آية ـ في التسلسل الثاني عشر لتواتر نزول سور المصحف الكريم، ولكنها جاءت ـ عند التدوين النهائي للمصحف ـ في التسلسل الثالث والخمسين بين سوره البالغة مئة وأربع عشرة سورة، هو ما يعني (تعليق) تراتب نزولها الذي جاءت عليه، وقد أجمع المفسرون أن السورة نزلت في مكة، وكان من مقاصدها أن تبدّد جانباً ممّا كان يكابده النبي محمدﷺ من جفاء بعض أهله وقبيلته[٢٤]، فأنزلت عليه سورة تحكي له قصة نبي آخر عانى من قسوة أقرب الناس إليه: إخوته وسوء فعالهم معه، « ولذلك بعد نفسي يخفّف من قسوة ما يواجههﷺ»[٢٥]، ثم هي بعد ذلك خطاب لمتلقيها من الصحابة في حينها، وللناس جميعاً في الأزمنة اللاحقة، لتبين لهم أنَّ العاقبة للمؤمنين المتقين الصابرين رغم الابتلاءات والمِحن .

لقد أخذت (سورة يوسف) مساحةً من التمثّل القيمي والتعبيري الخاص بها الذي نعدّه (استهلالاً) يسبق متنها السردي، ويهيئ المتلقي لاستقباله.

وقد أوردت كتب البلاغة العربية عدداً من المفردات المترادفة المسمية لهذا النسق من

التعبير، مثل: (الابتداء) و(الاستهلال) و(الافتتاح)، وهي كلّها « تتصل بالاستهلال وجمال بدايات الكلام »[٢٦]، إذ « ينبغي للمتكلم أن يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه، حتى تكون أعذب لفظاً، وأحسن سبكاً، وأصحّ معنى، أحدها الابتداء»[٢٧].

وعند صاحب (منهاج البلغاء) فإنَّ (الاستهلال) أحسن ما في صناعة البلاغة، « إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها، المتنزلة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً لتلقّي ما بعدها »[٢٨].

أمّا (ابن قيم الجوزية) فعنده أنَّ حسن الابتداء « دليل على جودة البيان وبلوغ المعاني إلى الأذهان، فإنَّه أول شيء يدخل الأذن، وأول معنى يصل إلى القلب، وأول ميدان يجول فيه تعبير العقل»[٢٩].

وحين يرصد الاستهلال القرآني فإنَّه يراه على نوعين: الأول جلي، كقوله تعالى (الحمد لله ربِّ العالمين)، وأكثر مطالع سور القرآن الكريم على هذا النمط، والآخر: خفي، كقوله تعالى ((الم ذلك الكتاب))، وما يجري مجرى ذلك من السور التي افتتحت بالحروف المفردة أو المركبة[٣٠].

ويرى أحد الباحثين المعاصرين أنّ «الاستهلال ليس عنصراً منفصلاً عن بنية العمل الفني كلّه، كما يوهم موقعه في بدء الكلام، كما أنّه ليس حالة سكونية يمكن عزلها والتعامل معها كما لو كانت بنية مغلقة على ذاتها، وإنّما هو المدى البنائي والتاريخي المتوالد من العمل الفني كله، الخاضع لمنطق العمل الكلي، وفي الوقت نفسه فهو عنصر له خصوصيته التعبيرية باعتباره بدء الكلام، والبداية هي المحرك الأول لعجلة النصّ كله»[٣١].

وطبقاً لذلك فإن للاستهلال وظيفتين: « الأولى جلب انتباه القارئ أو السامع أو المشاهد

وشده إلى الموضوع...أما الوظيفة الثانية فهي التلميح بأيسر القول عما يحتويه النصّ»[٣٢].

وفي الأحوال كلّها فإنَّ (الاستهلال) يعكس طبيعة (الخطاب) الذي يحمله النصّ ويخبر عنه، فمنذ الجملة الأولى يكاشف النصّ متلقيه باستهلال يتعين فيه خطابه سواء أكان دينياً أم كان سياسياً أم كان اجتماعياً أم كان أدبياً جمالياً.

ابتدأت سورة يوسف ـ بعد المفتتح الصوتي الذي مرت قراءته ـ بالاستهلال الآتي: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾(يوسف ١-٣)وواضح أنَّ الآيات الثلاث في أعلاه تتّجه بخطابها إلى النبي محمد ﷺ كونه متلقيها الأول ولكنها سرعان ماتعلق الأمر(تعليقاً مؤقتاً)، فتتّجه بخطابها إلى الجماعة المسلمة (لعلّكم تعقلون)، لتعود بعد ذلك فتخاطب النبي بأنَّ ما يوحى إليه من القصص القرآني هو أحسن القصص وأصدقها وأكملها سياقاً، كونها تأتيه من ربه.

لقد (علق) النصّ في خطابه مرحلة سابقة من حياة النبي كان فيها ـ بحسب الوصف القرآني في آخر تلك الآيات ـ (من الغافلين)، ولاشكَّ في أنَّ السياق هنا (يعلق) معنى الغفلة المتداول ـ الذي ينزه النبي الكريم أن يوصف به ـ لتذهب بها إلى معنى أنك من غير المطلعين عليها أو المنشغلين بها قبلاً.

مرت الإشارة إلى بعض ما قيل عن أسباب نزول هذه السورة، وأنّها جاءت لتبدّد جانباً ممّا كان يكابده النبي محمد ﷺ من جفاء بعض أهله وقبيلته، وهو ما يعني أن الخطاب فيها موجّه له ﷺ أولاً، ليكون هو الذي تروى له القصة من قبل راو(كلي العلم) هو الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

ولأنَّ مقاصد الراوي لم تكن لتورد القصة في المصحف المقدّس لذاتها بل لغايات قيمية متواترة فقد تواصل التذكير الإلهي بتلك الوجهة من خلال فواصل وعظية (تعلق) السرد مؤقتاً، لتستعيد بثّها القيمي وترسّخه عبر(تعليق متكرر) لتلك الإشارات المتبناة بين طيات المتن السردي للقصة:

﴿ لقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾

﴿ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

وكما في الاستهلال الذي سبق القصة فقد اتبعت بعد انتهائها بخلاصات قيمية مماثلة وبخصب واتساع تعبيري أكثر، احتوى الآيات (١٠٢ـ ١١١)، لتشكّل تلك الرؤى القيمية ـ في مستهل السورة وختامها إطاراً تعبيرياً وضعت القصة بين دفتيه، وهي سمة تعبيرية تمثّلها القصص القرآني في ترسم سياق (القصة الإطارية) على نحوٍ مطرد فيه [٣٣].

* التعليق في السياق السردي للسورة:

يبتدئ متن القصّ في السورة من (موضوعة الرؤيا) التي استحالت هنا مرتكزاً أساساً في السرد، إذ تكررت مرات عدة، كانت تعلق فيها، لتعود مرةً أخرى وبتشكلٍ مضموني مختلف، مؤسسة ـ في سياق القص ـ لأنموذج خاص من (التعليق المتكرر) عايشته شخصية النبي يوسف وبعض الشخصيات الأخرى في القصة: (الفتيان / الملك) أولئك الذين لم يجدوا تفسيراً لما انتابهم من رؤى إلا عند يوسف وحده،

مع أن رؤياه هو نفسه كان قد بحث لها عن تفسير عند أبيه (يعقوب): ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. ولكنّ أباه ـ الذي لاشكَّ في أنّه كان على بيّنة من تأويلها ـ (علّق) أمرها (تعليقاً مؤقتاً): ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. وكان من المهم في السياق السردي أن لا تفسر هذه الرؤيا في لحظتها لأنَّ ذلك سيكون سبباً في غياب عنصر الترقب الذي تبناه مسار القص، و(علقه) حتى آخرها.

أما الرؤيتان الأخريان فقد حضرتا في وقتهما السردي المعتاد، وصنعتا مساحةً خاصةً للتأثير في مسارالقص اللاحق، ليجري بعد ذلك (تعليق) الأولى (المدعاة) نهائياً بعد تحقّق ما فسرها يوسف به . أما الأخرى (رؤيا الملك) فقد انتهت القصة وهي تعايش تفصيلات تحققها.

ومقارنة بين البعد القيمي لتلك الرؤى الثلاث ـ التي تقدّم في مجموعها مثالاً (للتعليق المتداخل) في هذه القصة ـ سنجد أن رؤيا يوسف كانت ذات طابع ديني، حيث الشمس والقمر والكواكب التي تؤدي طقساً تعبدياً، في حين جاءت الأخريان بحدود المدرك البشري المعتاد في تصوراته، وبمستلزمات تجسيد مستمدة من الطبيعة ومكوناتها الحيوانية والنباتية: (الطير، الخمر، البقرات، السنبلات)، وذلك يعني أن رؤيا يوسف ذات طابع روحاني تتسامى تكويناته ـ كونه متعلقاً بنبي ـ إلى حيث (تعلق) الوجود الأرضي وتتعالى عنه.

لقد كان (للرؤيا) فاعليتها المثيرة في إحداث التحولات المفصلية في مسار السرد وتصاعد حركيته، فبسبب رؤيا (علق) تفسيرها أبعد يوسف عن أبيه، وبسبب رؤيا ثانية

فسرت أخرج من السجن، وبسبب رؤيا ثالثة فسّرت أيضاً أصبح (عزيز) مصر، وكانت كلّ تلك الرؤى حاضرةً بين يدي يوسف، ليستحيل تفسير الرؤى واحدة من امتيازات النبوّة التي وهبها الله له: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾.

وهكذا تهيّأ للرؤيا أن تكون ـ فضلاً عن فاعليتها في (المتن الحكائي) ـ ذات فاعلية مماثلة في (المبنى الحكائي) أيضاً[٣٤]، إذ تبدّت بوصفها ملمحاً أسلوبياً « يؤدي دوره الجمالي في قصة يوسف في عمق البناء السردي من ناحية، وفي الوظيفة التي تتمايز بها الشخصيات والأحداث وتطورها وتناميها من ناحية أخرى»[٣٥].

إذا كان النصّ القرآني لقصة بوسف قد ابتدأها بالإشارة إلى الرؤيا التي قصّها على أبيه (يعقوب) فإن ورودها في التوراة قبلاً (علق) أمرها مؤقتاً، مقدماً عليها الحديث عن حبّ أبيه الشديد له: « وكان إسرائيل (يعقوب) يحبّ يوسف على جميع بنيه لأنه ابن شيخوخته، فصنع له قميصاً موشىً، ورأى إخوته أنّ أباه يحبّه على جميع إخوته فأبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلّموه بسلام »[٣٦].

يشير النصّ في التوراة هنا إلى تعلق الأب بيوسف وحده، وبغض إخوته له بسبب ذلك، في حين يجعل النصّ القرآني الأمر متعلقاً بيوسف وأخ آخر أصغر منه: ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾. وسوف (يعلق) الحديث عن هذا الأخ تعليقاً موقتاً، فلا تستعاد الإشارة إليه إلا في وقائع القصة الأخيرة . وبدا أنَّ أولئك الإخوة المبغضين لم يشملوه بمسعى التخلص الذي بيّتوه ليوسف وحده، وهو أمر يكسر أفق التوقع السائد في المخيلة الشعبية التي كانت دائماً ما تسلّط الضوء ـ في سردها ـ على دور أصغر الأبناء، وتجعل قسوة الإخوة ومجافاتهم مسلطةً عليه، وذلك ما نجده كذلك في (التوراة) حين الإشارة إلى بعض قصص الأنبياء[٣٧] ولكن قصة يوسف خرجت على ذلك، لتجعل فعلة

الإخوة مسلطةً على الأخ الأكبر منه: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾.

يرد في التوراة أن يعقوب هو من صنع ليوسف قميصه الذي كان يرتديه يوم سعى إخوته للتخلص منه « وجعله مزركشاً، ليتميّز به يوسف عن إخوته »[٣٨] وذاك ما أشعل غيرتهم، فانتزعوه منه قبل أن يلقوه في (الجب)، « وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ». وذهبوا إلى أبيهم به (عشاء) يبكون[٣٩]، مدعين أنَّ الذئب قد أكلَ أخاهم، وهي التهمة التي لم يصدقها يعقوب[٤٠]، فاكتفى (بتعليق) أمر السؤال عن حقيقة ما جرى ليوسف، مخاطباً أبناءه: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

وسنلاحظ أن النصّ قد (علق) الإشارة إلى فعلة الذئب المدعاة نهائياً، غير أن الطريف من أمرها أنها بقيت تستحضر كلما اتهم شخص بأمر ما هو بريء منه، فيقال ـ وفي سياق من الاستعاد الذي (علق) اسم يوسف منه نهائياً، ونسب فيه إلى أبيه ـ (هو بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب)! .

تبدّت (للقميص) في قصة يوسف فاعلية دالة ومؤثرة في مسار السرد ـ مثلما كانت للرؤيا قبل ذلك ـ فهو مثلها تكررت الإشارة إليه ثلاث مرات، ومثلها تمثل فيه (التعليق المتكرر)، مثلما تهيّأ له فيها أن يحقق ـ كما الرؤيا ـ تواصلاً لحركة القص وتصعيداً لأحداثها.

كانت الإشارة الأولى ما مرّ ذكره، حين استحال القميص دليل براءة (كاذبة) ادّعاها إخوة يوسف، و(علق) أمرها (تعليقاً مؤقتاً) حتى آخر القصة. أما الثانية فكانت مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسه، فهرب منها، لتلحق به وتقطع قميصه (من دبر)، فيكون ذلك دليل براءة (مؤكدة) ليوسف هذه المرة، ولكنها علّقت هي أيضاً (تعليقاً

مؤقتاً) لحين الاعتراف بها لاحقاً .أما الثالثة فكانت حين أرسل يوسف قميصه إلى أبيه (يعقوب) ليلقى على وجهه[٤١]، فيعود إليه بصره، و(تعلق) أحزانه نهائياً.

تعلّق القصة ـ وهي تدلف إلى انتقالة مفصلية مهمة في حياة يوسف ـ (تعليقاً مؤقتاً) ما كان من أمر إخوته، وتذهب معه ـ بعد أن أخرج من (الجب) وأخذ إلى مصر ـ نحو مرحلة جديدة من الوقائع، والعيش في بيئة (حضرية) مختلفة (علقت) من خلالها نهائياً مرحلة (البداوة) التي عاش فيها مع أهله. وفي هذه المرحلة تهيأ ليوسف استكمال مستلزمات بناء شخصيته الإنسانية والسلوكية، إذ (آتاه ربه حكماً وعلماً). ولكن قدّر له يتعرض إلى تجربة أخلاقية قاسية، تمثّلت في مراودة (امرأة العزيز) له ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فما كان منه لا أن يلوذ بتأسيسه القيمي الذي حباه به ربه نائياً به عن السوء والفحشاء.

وما يلفت الانتباه هنا أن واقعة المراودة جاءت في النصّ القرآني بتكثيفٍ شديد، بعكس ورودها في التوراة حيث التفصيلات أكثر، ومثلها في الروايات التاريخية الإسلامية[٤٢]، وذلك ما يوحي بأن السياق القرآني ـ وهو يعلق تلك التفصيلات ـ كان يسعى للتركيز على تبيان ما في الموقف من اندفاع شهواني ضجت به رغبة امرأة العزيز وسلوكها المهيج[٤٣].

كانت براءة يوسف بيّنة الإدلال، فقد قدّ قميصه من الخلف، وذاك ما أدركه الزوج (العزيز) ومن كان معه، ولكنه لم يفعل شيئاً سوى أن يطلب من يوسف تناسي الأمر، ومن (السيدة) ـ التي (علق) اسمها في النصّ القرآني وقبله في نص التوراة، وجرت الإشارة إليه خارجها[٤٤] ـ أن تستغفر لذنبها، منهياً الأمر عند هذا الحدّ، وهو ما يوحي بضعف مقدرة ذلك الرجل على التصرف[٤٥].

بإزاء قوة تلك الزوجة وتسلّطها الذي استبد بوقائع هذه المرحلة من السرد، لـ

(تتعلق) مقدرة (الذكورة) على الفعل مخلية الزمام (للأنوثة) ـ متمثلة بزوجة العزيز ـ التي راحت تتصرف بما تمليه عليها رغباتها الطائشة، حدّ أنها تجمع عدداً من نسوة المدينة اللائي سخرن منها، وتأمر يوسف بالخروج إليهن ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾، وذاك ما يعني أنّ إحساس النسوة بالألم قد (تعلق) عندهن نهائياً، دهشاً مما عليه يوسف من الحسن لتسخر هي منهن هذه المرة قائلة: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾، مصرةً على أن يشبع يوسف رغبتها، أو أن يعاقب: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾، وهو ما تحقّق فعلاً، حتى لكأن قوة التسلط الأنثوي السادرة في الاشتهاء استوجبت قراراً إلهياً لإحباطها: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ فكان أن ﴿اسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ليذهب يوسف إلى السجن الذي أراده ملاذاً من كيدهن .

لقد سبّبت تلك المرأة أذىً كبيراً ليوسف، غير أن اعترافها بما فعلته (عُلّق) حتى وقت لاحق، كما هي الحال مع إخوته وفعلتهم تلك التي سيواجههم بها في آخر القصة. ولعلَّ في ذلك (التعليق) نوعاً من العقاب النفسي لهم، فقد تركوا جميعاً مرتكسين إلى مكابداتهم الشعورية مدّة طويلة، ولم يطهّرهم من إثمها إلا اعترافهم بها في نهاية المطاف.

(يُعلّق) ـ في انتقالة سردية جديدة ـ أمر ما حدث في قصر العزيز (تعليقاً مؤقتاً)، ليكون مكان الأحداث القادمة في السجن الذي ألقي فيه يوسف، (معلقين) أمر براءته مع تأكدهم منها، ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ، وهناك تدلف أقدار يوسف به إلى مرحلة مختلفة من الوقائع والأحداث . حيث يلتقي بالفتيين اللذين قصا عليه حلميهما، وفسرهما يوسف لهما، لينتهي الحال بالأول (معلقاً) تأكل الطير من رأسه، وينال الآخر حريته، فيعود إلى عمله ساقياً للملك.

ومما يلاحظ أن سياق السرد جعل يوسف (يعلق) تفسير حلميهما مؤقتاً لحين أن يلقي عليهما بعض مبادئه التوحيدية، في مسعى للاستفادة من الموقف ووضعهما في فضاء الإيمان الذي هو عليه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾

غير أن يوسف، وحين انتهى من تأويل الحلمين ﴿أَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾، فدعا الناجي من الفتيين أن يذكره عند الملك، ليكون ذلك مدعاة لقرار إلهي بتمديد سجنه و(تعليق) حريته بضع سنين أخرى.

ولما استبدت بالملك رؤياه عن (السبع بقرات والسبع سنبلات). وذهب المفسرون إلى (تعليق) أمرها كونها (أضغاث أحلام) ـ أخذت تفصيلات الرؤيا إلى يوسف في سجنه كي يتولى تفسيرها، وذلك ما فعله، ليكون الأمر مدعاة لإخراجه منه، وأن يعهد إليه الملك شأن اقتصاد تلك المرحلة الحرجة، فكان ذلك إرهاصاً بمرحلة جديدة، تهيأ ليوسف فيها أن ينال أعلى مراتب الجاه والسلطة.

وفي أثناء هذه المرحلة جرى في سياق السرد حل عقد المشكلات التي واجهت يوسف قبلاً . إذ اعترفت امرأة العزيز بفعلتها، ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وجاء إليه إخوته آملين (ميرتهم) من غلة مصر التي بين يديه، فكان لهم معه ما كان من وقائع احتواها سياق السرد، وصولاً إلى لحظة اعترافهم ـ بعد تعرفهم إياه ـ بفعلتهم، قائلين: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، وانتهاء عند تحقق تأويل الرؤيا

التي حدّث بها أباه في أول القصة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، ليرفع يوسف يد الابتهال شاكراً ربه على ما وهبه إياه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

وعند هذا الحدّ تنتهي القصة في النصّ القرآني و(تُعلَق) نهائياً، بعد أن استكملت متنها السردي المقصود[٤٦]، واضعةً الاستلال القيمي والعظة منها بين يدي آيات أخرى لاحقة (الآيات ١٠٢-١١١) تلك التي تمثّلت وجهة الخطاب الذي ابتدأت به السورة، وذلك ما سبقت الإشارة إليه.

*التعليق في عناصر السرد وبناه اللغوية:

على عكس السرد البشري الذي صار بالإمكان الحديث فيه عن (الراوي) بمعزل عن (المؤلف) فإن القصص الديني في المتن القرآني يجيء عبر واحدية المؤلف والسارد وتماثلهما في النصّ المرسل من الخالق سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ.

ولأننا بإزاء قصص ديني أورده كتاب سماوي مقدس فقد كان من البدهي أن يهيمن على السرد (الراوي العليم) المطّلع على تفصيلات الوقائع وسلوك الشخصيات وما تعلنه وتضمره من أفكار ومواقف وتصرفات، ليضفي على السرد حضوره الفياض من خلال الوصف والتقرير والتعليق.

وإذا كانت تلك من خصوصيات النصّ القصصي الديني - والقرآني خاصة - فإنَّ ماعدا ذلك من عناصر السرد وآليات اشتغاله المعهودة قد توافر عليها هذا النصّ وأسس من خلالها فضاء بثه الحكائي.

تأتي الشخصية في القصص الديني مخبرة عن وجودها التاريخي المقنن في وقائع حصلت لها فعلاً، وتشخّص لها من خلالها حضور يقيني، وبذلك فهي غير الشخصية في التأليف السردي البشري الذي تعدّ فيه نتاج عمل تأليفي واقعي أو متخيل[٤٧].

ولكن ذلك الحضور المشخّص لا يمنع أن تتردد إلى جانبه ـ سواء في كتب التاريخ أو في الاشتغال الشعبي على القصة ذاتها ـ إشارات لاحقة تقارب تلك الشخصيات بإضافات غير واردة في المتن الديني، كالذي مررنا ببعضه في هذه القصة.

استوعبت سورة يوسف ـ كأيّ واقعة سردية ـ أنماطاً من الشخصيات التي أدت أدوارها إلى جانب النبي (يوسف) الشخصية الرئيسة التي بقيت حاضرةً على امتداد السرد، فكانت بعض تلك الشخصيات ذات حضورفاعل في حركية الوقائع، في حين بدت سواها هامشية الأدوار، وهو ما تبرز دلالاته حين نستقصيه من خلال مجسنا القرائي (التعليق).

كانت شخصية النبي يوسف هي المحور التي دارت حوله مواقف الشخصيات الأخرى وأفعالها وتعلّقت به، ولذلك فلم يكن لها أن تغيب عن أيّ مفصل من مفاصل السرد. وهي أن غابت بفعلها المباشر في بعض الوقائع فقد كانت حاضرة من خلال تأثيرها في سلوك الشخصيات الأخرى وممارساتها التي بدت ـ في الغالب عليها ـ ردود أفعال لأقوال النبي يوسف وأفعاله.

لقد حافظت شخصية (يوسف) على سمتها القيمية المتأصلة فيها ولم تغادرها ـ كونها شخصية نبي ـ ولكن ذلك لم يجعل منها شخصية (مسطحة) في وجودها السردي فقد تطور بناؤها المعرفي وتوطدت مسارات صلتها بالشخصيات التي حولها، ولاسيما تلك الشخصيات التي شهدت سلوكياتها تغيرات درامية وانتقالات (عُلقت) فيها

ممارسات بعينها واستجدت أخرى، كما هي الحال مع إخوة يوسف، وامرأة العزيز.

استبدت ـ بسوى شخصية يوسف ـ أنماط (تعليق) مختلفة، إذ عايش بعضها مثل: (النبي يعقوب، إخوة يوسف، امرأة العزيز، الفتى الساقي، النسوة اللواتي قطّعن أيديهن) حالة من (التعليق المؤقت) الذي كانت تحضر فيه عند الوقائع التي تخصها، لتغيب (مؤقتاً) عند ظهور أدوار سواها التي (تعلق) هي أيضاً، لتعود سابقتها ثانية إلى الظهور وبحسب تشخّصها في سياق السرد الذي كان أساسياً وفاعلاً.

أما ماتبقى من الشخصيات فقد جرى تعليقها (تعليقاً نهائياً) بعد أداء كل منها لدوره في سياق السرد، كشخصية من التقط يوسف من الجب وباعه، وشخصية عزيز مصر[٤٨]، وكذلك شخصية الملك الذي عهد ليوسف بسلطاته[٤٩].

يعرّف (المكان) بكونه« البيئة التي تتموضع فيها الأشياء والشخصيات»[٥٠]. وتحدّد له ـ في علم السرد ـ أنواع وتوصيفات عديدة هي نتاج استقراء حضوره المؤسس لقيمه في العمل السردي[٥١].

استقامت كشوفات المكان في قصة يوسف متجسدة بين بيئتين: الأولى (بدوية) هي (أرض كنعان)، حيث بيت أبيه (يعقوب)، والأخرى (مدنية) في مصر، حيث بيت العزيز، وبلاط الملك، ومقر سلطة يوسف الذي أصبح عزيز مصر. وقد تواترت تفصيلات الوقائع في أكثر من مكان بين تلكما البيئتين، مثلما (علق) حضور كل بيئة منهما لصالح الأخرى في أثناء سرد القصة، ولأكثر من مرة .

لقد تبادلت الأماكن في القصة توصيفها القار لها في الدرس السردي وسواه، فربما تغيّر سمت (المكان الأليف) ـ ليستحيل (مكاناً معادياً)، واتصف نقيضه بسمته تلك، وكان ذلك نتاج التفاعل الشعوري والسلوكي للشخصية ـ ولاسيما شخصية

(النبي يوسف) مع المكان وانعكاس فاعليته في وقائع حياته، ليمسي ذلك سبباً في أن (يعلق) المستقر الشعوري المعهود للمكان، ويغيّر من مواضعاته الأساس القارة فيه.

فعادةً ما يوصف (البيت) بكونه مكاناً أليفاً، ولكنه علق في هذه القصة فاستحال مكاناً معادياً للبطل (النبي يوسف) بفعل السلوك القالي له من بعض ساكنيه . هكذا كان الحال مع بيت أبيه الذي يفترض أن يكون ملاذاً طيباً، ولكنّ إخوته الساعين إلى التخلص منه، أبعدوه عنه إلى حيث ضيق الجب وظلمته، وكذلك الأمر مع بيت العزيز الذي أحاله مسعى الزوجة الغرائزي إلى مكانٍ (معاد)، وأكثر ضيقاً من السجن الذي فضّله يوسف عليه .

أما (الجُب)، ومثله (السجن) ـ وهما ممّا يوصف بالمكان المعادي ـ فقد تغيّر سمتهما، حين أسس كل منهما لانعطافةٍ كبيرة في حياة يوسف، لقد أخرج من ضيق (الجُب) لينقل إلى حيث يعيش حياة أخرى أكثرسعةً وفاعلية حضور، واستحال السجن المكان (الأحب) الذي دعا يوسف ربه أن يلقى فيه، ليغادره لاحقاً إلى حيث يصبح (عزيز مصر).

مع انتقال يوسف إلى مصر فقد (علق) النصّ القراني (تعليقاً نهائياً) البيئة (البدوية)، إذ لم يشر إلى عودة يوسف إليها. ولكن تلك البيئة علقت (مؤقتاً) في (التوراة) الذي واصل سرد حياة يوسف في مراحلها الأخيرة، مثلما استعاد الأمرنفسه بالنسبة للنبي يعقوب[٥٢] .

أما إخوة يوسف فقد ظلوا مترددين في (تعليق متكرر) بين البيئتن ـ البدوية والمدينية ـ تجسيداً لحالة من الانشغال الشعوري المضطرب الذي بدا مسعى إجهادهم فيه وكأنه نوع من العقاب جزاء ما فعلوه بيوسف[٥٣] .

لم ينشغل المتن القرآني لقصة يوسف بعنصر (الزمان) كثيراً؛ لأن هذا العنصر

لايكاد يتدخل في سيرورة القص ومبتغاه القيمي، ولذلك أحال تشخصه في التلقي إلى مدرك زمني عام، يستعاد فيه البعد التاريخي للمرحلة التي عاشها النبي يوسف ـ ومن معه من الشخصيات ـ وهو يحلّ في تسلسل منضبط بعد أسلافه من الأنبياء منذ (إبراهيم) مروراً بجده (إسحاق) وحتى أبيه (يعقوب) .

وعلى هذا يمكن القول إنَّ المتن القرآني لقصة يوسف (علق) الفاعلية السردية المقننة للزمن، وأطلق وقائعها في فضاء عابر للزمانية، ومنشغل في إيصال بثه القيمي الذي هو غايته الأساس.

أما خارج ذلك المتن فقد امتدّت الوقائع على مساحة زمنية أشير إليها بأعداد من السنوات الطويلة[٥٤] .

وكان ورود بعض مسميات الزمان في القصة لازمةً مهمةً لتشخيص السياق بتأثيث زماني مناسب له، في الوقت نفسه الذي يمنح أفق التأويل مساحة تقول خصبة كالذي يمكن ذكره عن (الرؤيا) بوقائعها المتعددة التي ترتبط غالباً بالليل، ليكون تأويلها في مساحة ضوئية لاحقة. وعلى عكسها ما كان من أمر إخوة يوسف معه، فحين فعلوا فعلتهم وألقوه في (الجُب) فقد (جاءوا أباهم عشاء يبكون)، مستفيدين من الظلمة لإخفاء ملامح وجوههم، وما يمكن أن تخبر به من القول المدعى، ليستحيل البعد الزمني بسواده (معادلاً موضوعياً) لسوء فعلتهم وعتمة أرواحهم.

مثلما يقوم البناء السردي على عناصر أساسية ـ تتمثل في: (الحدث) وتفصيلاته، و(الشخصيات) وأدوارها في مسار الأحداث، و(الفضاء السردي) المكتنف لعنصري (المكان) و(الزمان) ـ فإنه ينهض على مجموعة من آليات الاشتغال السردي التي تتمثل في: (القص) الذي تندرج الأحداث متواصلة فيه، و(الوصف) الذي

(يعلق) تدفق (القص) (تعليقاً مؤقتاً)، ليرسم سمات الفضاء السردي وسيماءه، ويجسد ملامح الشخصيات وتكيفاتها الشعورية، ليجيء (الحوار) بعد ذلك مجسداً جانباً من التفاعل السردي بين الشخصيات.

تبينت لنا طبيعة (القص) وتفصيلاته في قصة يوسف حين لاحقنا متنها السردي، وقد ساوقه (الوصف) هناك، وإن كان بحدود ضيقة، إذ لم يقف المتن القرآني للقصة عند الوصف طويلاً، بسبب انشغاله الأساسي المنصب على (القص) وما يسايره من تفاعل شخصيات القصة عبر(الحوار) الذي تواترت أمثلته في أثناء السرد وحركيته، لتتشكل فيه كثير من اللوحات الحوارية التي تصلح أن تكون مشاهد مسرحية مؤثرة.

سبق حوار الشخصيات ـ وعلى امتداد النصّ ـ بالفعل (قال) وهو يجيء مخبراً عن حديث الشخصية المفردة أو عن مجموعة من الشخصيات، وعلى النحو الإحصائي الذي يظهره الجدول الآتي:

الفعل	التكرار
قال	٤٤
قالوا	٢١
قالت	٥
قلن	٣

لقد تردد الفعل (قال) الذاهب بدلالته غالباً إلى النبي يوسف، وكذلك النبي (يعقوب) أكثر من أربعين مرة، مجسّداً الحوار الذي دار بينهما، أو مع الشخصيات الأخرى في القصة، وبها أبان غالباً عن هيمنة الشخصية الفرد ـ النبي يوسف ـ كونه بطل القصة ومحور التفاعل مع شخصياتها الأخرى التي أبدت حواراتها ـ من خلال الفعل (قالوا)، الذي ذهب معظمه متصلاً بإخوة يوسف أكثر من عشرين مرة.

تمثل (الحوار) ـ في بعده التفاعلي بين الشخصيات ـ جملة انتقالات شعورية أخبرت عن طبيعة الموقف الذي تعايشه الشخصيات المعنية في لحظتها الحوارية تلك، ليقام ذلك على مسار من (التعليقات) النصّية المختلفة.

لقد كان الحوار بين (يوسف) وأبيه (يعقوب) في بدء القصة حواراً ودوداً مفعماً بالثقة والتواصل الإنساني الحميم، في حين جاء حوار إخوته ـ وهم يخططون لفعلتهم ـ متشنجاً ومؤشراً لنزعة شريرة تلبستهم نحو أخيهم. أما مع أبيهم فقد اتسم بترددهم وبالشك من قبل أبيهم. في حين كشفت سمة التحاور بين الشخصيات في بيت العزيز عن غلبة الشك والاتهام والمسعى لدرئه.

وجاء حوار يوسف مع إخوته ـ في وقائع القصة الأخيرة ـ متسماً بالثقة والتيقن الشعوري من قبله، مقابل قلقهم وتخبطهم والتوزع الشعوري الذي كان بادياً على أفعالهم وأقوالهم.

لاتطيل الدراسات السردية غالباً الوقوف عند البعد التركيبي للنص المقروء، كونه لايأتي مقصوداً لذاته فيها، ولكننا ونحن نتداول هنا قصة يوسف في متنها القرآني ـ الذي تمثل اللغة مرتكزاً تعبيرياً مفعماً بقيم بلاغته ودلائل نصيته العالية ـ نجد من الأهمية أن نقرأ هذا البعد، استئناساً بما بمكن أن يكاشفنا به من قيم التمثل المخبرة عن آلية (تعليق النصّ) والبث الدلالي المؤشر فيها، وهي ترد مستثمرة الأفعال والاسماء، وما يتشكل من أدائيتها وهي تستحيل جملاً بسياقات خاصة.

استوقفتنا ـ في تأملنا للحوار ـ الفعل (قال) واشتقاقاته التي نالت حضوراً متواتراً وعلى نحوٍ لافت، ونحن إذ نستعيده هنا فلأنه يخبرنا عن تراتبية تداول لافتة رافقت مسار السرد، وجرت له نسقية من (التعليق) خاصة.

ابتدأ حوار النصّ بين النبيين (يوسف) وأبيه (يعقوب) بالفعل (قال)، وهم يتداولان أمر الرؤيا التي (عُلق) تأويلها حتى آخر القصة، حيث استعيد ثانية ومعه الفعل (قال) وكأنه استئناف للحوار الذي (عُلق) تواصله بينهما زمناً طويلاً: " قَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا «. وكان الحوار حين توقف بينهما وذهب السرد يواصل مساره قد استبد به تردد بين الفعل (قال) مشيراً إلى ماكان يخاطب به (يعقوب) أبناءه، والفعل (قالوا) الذاهب إلى حواراتهم بينهم أو مع أبيهم، ليتخلّله تداول الفعل (قال) عائداً على حوارات بعضهم، ومخبراً عن نزعة من التردد انتابته، ولكنّه لم يصمد طويلاً فـ (علق) فردية سلوكه منظوياً في العمل الشائن الجمعي الذي قاموا به، وضاماً صوته إلى أصوات الآخرين . وحين (يعلق) السرد أمر هؤلاء ويذهب إلى منطقة جديدة من القص تلك التي دارت وقائعها في بيت العزيز ستستعاد فردية الفعل، ولكنها هذه المرة بين الصيغتين: (قال) و(قالت) التي ستفرض سطوتها أخيراً وينفذ قولها: ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أما في الوقائع الأخيرة من القصة فقد جرت الإشارة إلى تداول صيغ الفعل (قال) جميعها، مخبرة عن مسعى لتأشير (تعليق) التباعد الجغرافي بين شخصيات القصة والإخبار عن اجتماعها مع يوسف في مكان واحد وزمانية واحدة.

وإذ تمسكت الأفعال بسمتها الدلالي القار فيها فقد بدا على بعضها (تعليق) ذلك المحتوى والإتيان بنقيضه، كالذي جاء عليه الفعل (شروه) في قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ ، إذ ورد ـ مشيراً إلى إخوة يوسف بمعنى(باعوه)وبما (علق) دلالته المعهودة التي سترد في آية لاحقة: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ: أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾.

ولعلّ هذه الممارسة الدلالية ستكون أكثر تجلياً مع الأسماء الواردة في النصّ، سواء ما كان أسماء أعلام أو مسميات لتكوينات أخرى.

لم يرد في المتن القرآني للقصة من أسماء الأعلام الصريحة سوى اسمي النبيين (يوسف) وأبيه (يعقوب)، وورد ذكر ماعداهما بصفته: إخوته، امرأة العزيز، صاحبا السجن . أو بطبيعة سلطته: العزيز، الملك. وفي ذلك ما يوحي أنّ للاسم قدسيته التي لم يرد هذا المتن التفريط بها، فقصرها على اسمي النبيين وحدهما، و(علقها نهائياً) عن سواهما.

ورد اسم يوسف في السورة صريحاً اثنتين وعشرين مرةً. ولكنّه كان يواجه (تعليقاً متكرراً) في بعض مفاصل السرد، كالذي حصل بعد أن ألقاه إخوته في (الجب). فبعد تردد اسمه سبع مرات قبل ذلك جرى تعليقه، واستعيض عنه بالضمير(هو) منذ الآية: ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾. وكأن السرد ساير رغبة أولئك الإخوة في تغييب يوسف، وتواصل مع فكرة موته التي أرادوا إشاعتها، مثلما تمثل مجهولية مسماه من قبل أولئك (السيارة) الذين التقطوه من (الجب). وما أن تحقق ليوسف الاستقرار حتى عاود الاسم الظهورمجدداً، ومنذ الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾وحتى آخر آيات القصة.

(عُلق) اسم النبي (يعقوب) حتى منتصف القصة تقريباً ـ وتحديداً حتى الآية الثامنة والستين: ﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾. أما قبل ذلك فكان يرد ذكره عبر مفردة (الأب) المضافة إلى الضمائر: (أبيه / أبت/ أبينا / أبانا)، ليعود (تعليق) ذكره نهائياً حتى آخر القص.

وكما مرّ ذكره فقد (علق) النصّ القرآني اسم امرأة العزيز (تعليقاً نهائياً)، واكتفى بوصفها هذا، في حين جرى تداول اسمها خارجه، ولاسيما في كتب التاريخ، فهي عند (الطبري) و(ابن الأثير) وسواهما: (راحيل) أو (راعيل)[٥٨].أما في المسمى الشعبي فهي (زليخة)[٧٣]، وهو الأمر ذاته الذي ناله اسم زوجها، فقد اكتفي

بوصفه على أنه (عزيز مصر)، في حين ذكره (التوراة) باسم (فوطيفار). أما على لسان يوسف فوصفه ـ وهو يتفادى مراودة زوجته له بأنه: (ربي الذي أحسن مثواي)[٥٥]، لـ (تعلق) في قوله هذا دلالة المفردة المكرسة للإشارة إلى الخالق سبحانه وتعالى التي وردت في السورة نفسها عشر مرات.

يشير القرآن الكريم إلى ملوك مصر القدامى بلقب (فرعون) في كل الآيات التي يرد ذكرهم فيها[٥٦] . ولكن هذا المسمى (عُلق) من سورة يوسف نهائياً، وورد مكانه لقب (الملك)، وفي ثلاثة مواقع من السورة، وتعليل ذلك عند بعض الدارسين المعاصرين أن الحقبة التي عاش فيها النبي يوسف في مصر كانت أيام الملوك الرعاة (الهكسوس) الذين تغلبت جيوشهم القادمة من بلاد الشام على جيوش الفراعنة، ليحكموا مصر من ١٧٨٠ وحتى ١٥٨٠ ق.م، حين زحف عليهم الفرعون (أحمس الأول) بجيشه من عاصمته (طيبة)، وأزال دولتهم، وأخرجهم من مصر كلها[٥٧].

حين نغادر أمر أسماء الأعلام إلى ماورد من مسميات أخرى ـ جرى (تعليق) دلالتها الشائعة في التداول إلى أخرى محدودة الذكر ـ فسنقع على مايخبر عن ذلك من المفردات التي أشرت قيماً تعبيرية ومثاقفة لغوية وجمالية أريد لها أن تخبرعن خصبها في المتن القرآني .

لقد وردت مفردة (الجُّب) في سورة يوسف مرتين، ولم ترد في أي سورة أخرى سواها . و(الجُّب) هي (البئر)[٥٨]، ولكن المتن القرآني لم يستعمل هذه المفردة في السورة [٥٩]. كما (علقت) مفردة (القافلة) واستعملت مرادفتها (السيّارة): ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ .

ولم ترد مفردة (أمة) بتوصيفها المعهود على مجموعة من القوم بل (عُلق) ذلك لترد بدلالتها على الزمن: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (يوسف :٤٥) أي بعد مدة طويلة.

و(عُلقت) مفردة (أهل) أو(أصحاب) من قوله: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي: أهل القرية ، وأصحاب العير.

يبقى لنا أخيراً أن نشير إلى ماجرى لكثير من الجمل في السورة من (تعليق) لسياق التعبير الخبري المباشر، وترسم نسقين من الأداء الإنشائي غيره، تهيأ لها أن يردا بتكرار جملي لافت، وبما عكس المسعى التعبيري الذي ينشد تكريس الدلالة وترسيخ قيمها . وقد تمثل ذلك في سياق التعبير بجملة الاستثناء، وجملة التوكيد. فمن الأولى يمكن ذكر الآتي:

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ﴾

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾

﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾

﴿ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾

﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾

﴿ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾

أما الأخرى (جملة التوكيد) فتمثلت في:

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي ﴾

﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾

﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾

﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾

﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

ولعلّ ما يلفت الانتباه في جملة التوكيد هنا أنّها (عُلقت) عن أن ترد على لسان النبي يوسف، في حين اشتجر تكرارها في كلام الشخصيات الأخرى، ولا سيما إخوته الذين تواترت لديهم، مخبرة عن نزعة شعورية ممضة تتلبسهم للتغطية بالكلام المؤكد على الفعلة الشوهاء التي ما فتئت نتائجها تندّ أمامهم .

الخاتمة:

أخذتنا قصة النبي يوسف في متنها القرآني إلى فضاءات سردها لتكاشفنا بتمثلٍ متميز وخصيب ومتنوع لفاعلية (تعليق النصّ) وتشكّلاته، وذاك ماجعلنا نمحضها جهداً متسعاً من التأمل والاستنطاق لما راح يترى بين يدي استقرائنا من تمثلاتها للآلية التي استجلبناها كي نعاينها من خلالها.

لقد أبانت لنا القصة عن توافرها على أمثلة مشتجرة من (التعليق) سواء أكان ذلك في متنها السردي أم في التشكّل اللغوي الذي نهض بذلك وأخبرعنه.

وكان (التعليق المؤقت) هو الغالب على ما تمثلته من تعليقات، بما أسس لفاعلية سردية جعلت (أفق التوقع) يواصل انتظار القادم من السرد للوقوف على ماجرى تعليقه.

وربما أمدنا (التعليق المؤقت) الغالب على النصّ بثيمة قيمية تمثل خلاصة متنه السردي، فلقد أراد إخوة يوسف تعليق وجوده (تعليقاً نهائياً) من خلال قتله أو طرحه في أرض بعيدة (كي يخلوا لهم وجه أبيهم)، وشاء الله أن يكون ذلك (تعليقاً مؤقتاً)، يعود يوسف منه بحال أفضل وأعلى شأناً مما كان عليه قبلاً.

لم يورد المتن القرآني للقصة ـ مقارنة بما هي عليه في التوراة، أو في كتب التاريخ التي تناولتها ـ وقائع معينة، و(علقها)، إما لأنها مدركة من السياق، أو لأنها لاتضيف للقصة مردودات سردية وقيمية مهمة.

وكان اللافت أنا لم نجد في المتن القرآني للقصة أي مثال لـ (تعليق التشبيه). ولعلّ وراء ذلك مسعى التكثيف السردي الذي ساده، والنزوع اللغوي الذي انتهج مسار توصيل مباشر.

غير أن ذلك لا يتعارض مع القول أن السورة كلها أنتجت فاعلية (تعليق) تشبيهي دالة جرت الإشارة إليها خارج متنها، وتبدّت في سبب نزول هذه السورة التي تندرج ضمن الخطاب الإلهي الموجه إلى النبي محمد ﷺ، مبيناً جانباً من دواعي القصص القرآني المنزل عليه كله: ” وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك « إذ جاءت قصة يوسف لتضع بين يدي النبي قصة نبي قبله مرَّ بما يماثل معاناته مع قومه، وإن كانت تلك أشد قسوةً، فقد كانت مع إخوته الذين آذوه كثيراً. ولكنّه عفا عنهم وأكرمهم في آخر الأمر، ليتأسى النبي محمد ﷺ بذلك، فيكون منه العفو عمن أساء إليه من قومه وآذاه، ويخاطبهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

هوامش البحث:

١)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٢٠٣.

٢)تعليق النص آلية قرائية نسعى إلى تمثلها في قراءة أكثر من نصٍّ شعري ونثري وتقوم على استقصاء ما يحصل في النص من انتقالات أو تبدلات على مستوى المعنى / الدلالة، أوعلى مستوى التشكيل الفني – لغة وصورة وإيقاعاً – تؤسس لتعليق النص – بمستوياته كلاً أو بعضاً – لصالح معنى آخر في سياق الدلالة الأشمل التي تؤطر مختلف التعليقات النصية، وهي الدلالة التي تتكاتف تلك التعليقات لتجسيدها. ويبرز هذا التعليق في عدد من الأنماط، سنشير إليها في متن البحث.

٣)ينظر: ابن المعتز، البديع، ص٥٣ وما بعدها، و: ابن الأثير، المثل السائر، ص١٦٧ وما بعدها

٤) ينظر: موسى سليمان، الأدب القصصي عند العرب، بيروت ١٩٦٩م ص١٦٩.

٥) تعرف الاسرائيليات بأنها الروايات التي ترجع في أصلها إلى مصادر يهودية ـ ولاسيما التوراة ـ وقد دخلت في كتب تفسير القرآن الكريم، والتاريخ الإسلامي بوصفها مرويات مهمة. وعند (ابن كثير) في تفسيره فإنها ترد للاستشهاد لا للاعتقاد. وهو يضعها في ثلاثة أقسام: الأول ما وثقت صحته، والثاني ماعلم كذبه بما لدى المسلمين مما يخالفه، والثالث، مايروى مسكوتاً عن صحته أو كذبه. ينظر: تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥.

٦) ينقل أحد الباحثين المعاصرين عن (ابن خلدون) قوله إن سبب غياب القصص الديني عند العرب يعود إلى غلبة البداوة والأمية فيهم، بأزاء اليهود والنصارى الذين يتميزون عليهم بأنهم يقرأون ويكتبون، وهم أهل كتاب سماوي. ينظر: محمد كريم الكواز، مملكة الباري ـ السرد في قصص الأنبياء، ص ٦٥. وينظر مصدره. وعندنا فإن ذلك قد لايكون وحده مبرراً للأمر. فربما يكون خلفه طبيعة ديانتهم الوثنية التي أخذت منحى مختلفاً في تخيّر رموزها ومسمياتها، وما ترويه عنها.

٧) وقد وردت في القرآن الكريم أكثر من آية تدعو إلى ذلك وتؤكده، كقوله تعالى: « قولوا أمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون»البقرة/ ١٣٦. وقوله: »أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله» البقرة/ ٢٨٥.وقوله: « قل آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون « آل عمران/ ٨٤.

٨) القرشي، بنية الرؤيا ـ اللغة والدلالة وبناء الشخصية في قصة يوسف، ص٩.

٩) الكواز، ص١٩٢.

١٠) ينظر: د. يحيى الجبوري، الإسلام والشعر، بغداد ١٩٦٤م، د. سامي مكي العاني، الإسلام والشعر، الكويت ١٩٨٣م، دلال عباس، القرآن والشعر، بيروت ٢٠٠٠م ص١٩٣.

١١) وهي من السور المكية وآياتها مائتين وسبع وعشرون آية.

١٢) وهي مكية وآياتها ثماني وثمانون آية.

١٣) وردت مفردتا الشاعر والشعراء في الآيات الآتية:

ـ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. (ياسين / ٦٩)

ـ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر. (الأنبياء / ٥)

ـ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون. (الصافات/ ٣٦)

ـ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . (الطور/ ٢٠)

ـ ما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . (الحاقة/ ٤١)

ـ والشعراء يتبعهم الغاوون (الشعراء الشعراء/ ٢٢٤)

وهذه الآيات وردت كلها في السور المكية. إلاّ الآيات الأربع في آخر سورة (الشعراء) فهي مدنية، وقد أورد السيوطي في كتابه: لباب النقول في أسباب النزول، ص١٩٤، أن بعض الصحابة من الشعراء ـ كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وسواهما ـ جاءوا إلى النبي هلعين مما وصف القرآن الشعراء به، فنزلت الآية الأخيرة التي ختمت بها سورة الشعراء « إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» . وفي هذه الواقعة ما يؤكد أن الآيات الأربع نزلت في المدينة.

١٤) يس/ ٦٩.

١٥) ورد المصدر (قصص) وتصريفاته في المصحف الشريف ٢٦ مرة

ـ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل . (النساء/ ١٦٤)

ـ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت بع فؤادك . (هود/ ١٢٠)

ـ نحن نقص عليك أحسن القصص . (يوسف/ ٣)

ـ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون. (النمل/ ٧٦)

ـ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. (الأعراف/ ١٧٦)

ـ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب . (يوسف / ١١)

١٦) الشعراء ٢٢٤ مدنية.

١٧) وردت مفردة (أساطير) في القرآن الكريم تسع مرات في تسع سور- جميعها مكية ـ جاءت فيها كلها مضافة إلى مفردة (الأولين)

١٨) ولعل الشعر قد استعاد أهميته في الدعوة الإسلامية لاحقاً، وبعد أن تأكدت الرؤية اليقينية لدى المتلقين على نأي القرآن من أن يكون شعراً، وقد اتضح ذلك جلياً بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حيث برز عدد من الشعراء المهمين كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهيروسواهم الذين نالوا رضا الرسول ودعواته لهم .

١٩) ينظرعلى سبيل التمثيل:

ـ في التذوق الجمالي لسورة يوسف، محمد علي أبو حمده، عمان ١٩٩١م.

ـ د. رياض القرشي، بنية الرؤيا ـ اللغة والدلالة وبناء الشخصية في قصة يوسف، صنعاء ٢٠٠٤م.

٢٠) ورد ذكر اسم النبي يوسف من دون أي تفصيلات عنه في سورتين أخريين هما: (الأنعام / ٨٤) و(غافر/ ٣٤) وكلتاهما مكية.

٢١) ينظر: الكتاب المقدس ـ العهد العتيق، سفر التكوين، من الفصل السابع والثلاثين وحتى الفصل الخمسين

٢٢) فهي تبدأ على النحو الآتي: « لما كان يوسف ابن سبع عشرة سنة، وكان يرعى الغنم مع إخوته وهو غلام...أخبر يوسف أباهم عنهم بريبة شنيعة « الكتاب المقدس، الفصل السابع والثلاثون، ص٦٧.

٢٣) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١/ ٣٣٠ ومابعدها، و: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١/ ٧٨ ومابعدها، المسعودي/ مروج الذهب، ١/ ٥٠

٢٤) ينظر: القرشي، ص١٨ .

٢٥) المصدر نفسه. ص١٨ .

٢٦) د. أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، بغداد ١٩٨٩م، ١/ ١٦١ .

٢٧) المصدر نفسه، ص٦٢

٢٨) منهاج البلغاء، ص٣٠٩.

٢٩) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص١٣٧ .

٣٠) ينظر: المصدر نفسه ص١٣٧ .

٣١) ياسين النصير، فن البدايات في النص الأدبي، ص١٥

٣٢) المصدر نفسه، ص٢٢ـ٢٣ .

٣٣) عن القصة الإطارية وطبيعتها في القصص القرآني . ينظر: الكواز، ص١٩٣ ومابعدها، حيث يفترض أن قصة النبي محمد ﷺ وتلقيه لقصص من الأنبياء الآخرين هي قصة الإطار.

٣٤) يعرف (المتن الحكائي) على أنه مجموعة الأحداث المتصلة فيما بينها التي يتم إخبارنا بها خلال العمل الأدبي. أما (المبنى الحكائي) فتمثله الأحداث نفسها، ولكنها تأتي هذه المرة من نظام ظهورها في العمل. ينظر: إبراهيم الخطيب، نظرية المنهج الشكلي ـ نصوص الشكلانيين الروس، ص١٨٠.

٣٥) القرشي، ص٤٤.

٣٦) الكتاب المقدس، العهد العتيق، الفصل السابع والثلاثون، ص٦٧.

٣٧) ينظر: جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم، ٢/ ٣٥٥.

٣٨) يرد في بعض المصادر أنهم لطخوه بدم معزى ينظر: عقود المرجان في بيان الرسل بالقرآن، يونس الشيخ إبراهيم السامرائي ص٦٧.

٣٩) لاشك في أن ما فعلوه بيوسف كان في وضح النهار، ولكنهم (علقوا) أمر إخبار أبيهم بذلك حتى حلول الليل . ولعل وراء ذلك سعيهم لاستغلال الظلام في إقناعه بما على القميص من دم لا يمكن تمييزه حينها، فضلًا عن تعطيله من أن يذهب للبحث عن يوسف في ذلك الليل.

٤٠) يرد في الكامل لابن الأثير: « ثم قال لهم أروني قميصه فأروه، فقال: تا الله ما رأيت ذئباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يشق قميصه؟ ! « الكامل، ١/ ٨٠.»يرد في أحد المصادر: « ولما لم يجد بالقميص تمزيقاً ولا قطعاً قال متهكماً: ما أحلم هذا الذئب الذي افترس ولدي ولم يعمل في قميصه ناباً ولا ظفراً. يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، عقود المرجان في بيان الرسل بالقرآن، بغداد١٩٩٠م ص٦٧.

٤١) يرد في بعض المصادر أن يعقوب أخذ قميص يوسف الأول الملطخ بالدم ووضعه على وجهه ذاهباً في موجة بكاء شديد أفقدته بصره. وها هو قميص يوسف الآخر يعود ليلقى على وجهه فيرتد بصيرا.

٤٢) ينظر: الكتاب المقدس، العهد العتيق، الفصل التاسع والثلاثون، و: الطبري ١/ ٣٣٨.

٤٣) يرى أحد الباحثين أن سياق النص في واقعة (المراودة) يرشح (ثم) كي تكون هي أداة العطف بدلاً عن (الواو) في جملة «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ «، ومثلها «وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ»، إذ إن « نسيج السياق الدلالي وما ينتجه من معان عميقة يكاد يجبرنا على أن نقول: (ثم راودته)...لأنه ـ وإن كان التسلسل الفعلي نحوياً وسطحياً يلزمنا بالواو من حيث عدم التراخي فإن النسيج الدلالي العميق فعلًا يجبرنا على إدراك مسألة التراخي والتباعد»القرشي، ص٣١.

٤٤) ينظر: المصدرنفسه ص ٣٧.

٤٥) لم ير اسم امرأة العزيزفي النص الفرآني وكذلك في التوراة . غير أن كتب التاريخ أوردته فقالت إنه راحيل أو راعيل. ينظر: الطبري١/ ٣٤٣ . ولعلهم خلطوا بين اسم هذه المرأة واسم ام النبي

يوسف التي ورد في التوراة على أنها(راحيل). ينظر: الكتاب المقدس، الفصل السادس والأربعون.

٤٦) يورد الطبري١/ ٣٤٣: أن العزيز كان رجلًا لايأتي النساء، وكانت امرأته (راحيل) حسناء ناعمة في ملك ودنيا .

٤٧) واصل التوراة رواية وقائع أخرى. ينظر: الفصل الثاني والأربعون وما بعده.

٤٨) ينظر: د. مصطفى ساجد الراوي، بناء الشخصية في الرواية، ص١٩ .

٤٩) لأن السرد البشري يهتم غالياً بمصائر الشخصيات حتى النهاية فقد أوردت كتب التاريخ ما يخبرعن عزل الملك للعزيز (أطفير) وتولية يوسف منصبه، ثم وفاته بعد مدّة، ليتزوج يوسف امرأته راعيل أو راحيل. الطبري١/ ٣٤٧.

٥٠) ينظر: المصدر نفسه . علق النص القرآني اسمه، في حين أوردت كتب التاريخ ذلك الاسم فقالت أنه الريان بن الوليد. ينظر: الطبري١/ ٣٤٧.

٥١) مدخل إلى نظرية السرد، ص١٢٨ .

٥٢) لعل أبرز توصيفات المكان في العمل السردي هي تلك التي نظرت إلى مساحة التعالق الشعوري التي تعايشها الشخصيات مع المكان الذي يكتنف وجودها، فرأت أن تضعه في نوعين أساسين هما: (المكان الأليف) الذي يشعر الشخصية بالأمان والارتياح وحس الانتماء إليه، ويتمثل غالباً في البيت أو المقهى . وربما اتسع ليكون المدينة التي تنتمي إليها الشخصية أو الوطن كله.أما النوع الآخر فهو (المكان المعادي) الذي يشعر الشخصية بعدم الانتماء إليه والنفور منه، ويتمثل في السجن، والمكان المهجور، وساحة الحرب . وربما جرت مناقلة المكان الأول (الأليف) ليستحيل (معادياً) حين يفقد قيمه الأساس. للمزيد عن المكان، ينظر: د. يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، بيروت ١٩٧٥م .. د. سيزا قاسم، بناء الرواية ـ دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، بيروت ١٩٨٥م.

ـ د.شجاع مسلم العاني، البناء الفني في الرواية العربية في العراق، بغداد ١٩٩٠م.

ـ حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، بيروت ١٩٩٠م.

٥٣) يورد التوراة أن جثمان يوسف أعيد إلى أرض كنعان ليدفن إلى جنب آبائه من الأنبياء. ينظر: سفر التكوين، الفصل الخمسون.

٥٤)يورد التوراة أن ملك مصر قد أذن ليوسف أن يسكن أخوته مصر، ويمنحهم ماشاء من الأرض: « فأسكن يوسف أباه وأخوته، وأعطاهم ملكاً في أرض مصرفي أجود موضع منها» سفر التكوين، الفصل السابع والأربعون.

٥٥) يروي الطبري ١/ ٣٦٣أنه كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة.

٥٦) ينظر: الطبري١/ ٣٤٣.

٥٧) علق التداول الشعبي اسم امرأة العزيز الذي أوردته بعض كتب التاريخ واختار لها اسم (زليخة) الذي تردد في حكاياتهم وأمثالهم. ومما حفظته الذاكرة قولهم: (زليخه ليوسف تاليه)، مشيرين إلى زواج يوسف منها أخيراً.

٥٨) كما وردت ثانية على لسان يوسف وهو يطلب من الفتى الساقي الذي أطلق سراحه أن يذكره عند الملك « «وقال للذي ظن أنه..».

٥٩) وردت المفردة في سبع وعشرين سورة، وبها مجموعه أربع وسبعين مرة، وغالباً ماذكر اللقب مقروناً بقومه، فيقال (آل فرعون).

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

* ابن أبي الحديد، أبو حامد:

-شرح نهج البلاغة، قدم له وعلق عليه الشيخحسين الأعلمي، منشورات

* الأعلمي، بيروت٢٠٠٩م

* جابر، عادل شابث:

-الإسرائيليات في التاريخ العربي القديم، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي، بغداد ٢٠٠٩م.

* الراوي، د. مصطفى ساجد:

-بناء الشخصية في الرواية، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء٢٠٠٣م.

* السامرائي، الشيخ يونس إبراهيم:

-عقود المرجان في بيان الرسل بالقرآن، مكتبة الشرق الجديد، بغداد١٩٩٠م.

* سليمان، د. عامر (مشترك):

-محاضرات في التاريخ القديم، مطبعة جامعة الموصل، الموصل ١٩٧٨م.

* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير:

-تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق محمد أبو القضل إبراهيم،

* دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧م.

* العيد، د. يمنى:

-تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الآداب، بيروت د.ت.

* فريزر، جيمس:

-الفلكلور في العهد القديم، ترجمة د. نيلة إبراهيم، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٦م.

* القرشي، د. رياض:

-بنية الرؤيا ـ اللغة والدلالة وبناء الشخصية في قصة يوسف ﷺ، إصدارات وزارة

* الثقافة والسياحة، صنعاء٢٠٠٤م.

* القرطاجني، حازم:

-منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق د.محمد الحبيب بن الخوجة، تونس ١٩٦٦م.

* القزويني، الخطيب جلال الدين:

-التلخيص في علقم البلاغة، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، القاهرة ١٩٣٢م.

* الكواز، د. محمد كريم:

- مملكة الباري ـ السرد في قصص الأنبياء، دار الانتشار العربي، بيروت ٢٠٠٨م.

* مطلوب، د. أحمد:

-معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٩م.

* ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل:

- لسان العرب، دار صادر، بيروت ١٩٥٥م.

* النصير، ياسين:

- الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٩٣م.